

## بل غياب العربية فى وفى غير ساحة القضاء! (\*)

أحسننت صفحة الأدب بالأهرام - حين طرحت قضية للمناقشة تحت عنوان: "لماذا غابت العربية من ساحة القضاء؟.. ولكن ذلك يطرح سؤالاً أوسع: هل العربية هى التى غابت؟ أم أن ساحة القضاء هى التى غابت عنها العربية؟.. يطرح هذا التساؤل ما قد يبدو للمطالع لما قيل من آراء تفصل الجزء عن رحم الكل، وتتصور "الطغح "الموجود فى" ربح "بمعزل عن المرض العام الذى أصاب العربية فى إمامنا وعنايتنا بها وحرصنا عليها وعلى قواعدها ومفرداتها وروحها ومواطن الجمال فيها!

مهما طال غياب العربية فى ساحة القضاء، مرافعة أم كتابة للأحكام، فإن هذا الغياب فرع على كل، وطفح لمرض ضارب فى الأعماق يدهس العربية فى كل مكان، ومن المحال أن تتعمق درسة ظاهرة ما فى فرع، دون أن ترد أسبابها إلى الكل أو المحيط الواسع الذى تتعكس أمراضه على فروعه وأعضائه. وأزمة العربية أزمة طفحت من قديم وتتوالى تداعياتها حتى صارت تهدد بغياب عام يهدد اللغة نفسها وينذر بتداعيات سوف تصيب بالحثم قدرة اللاحقين على إدراك وتذوق وتمثل القرآن المجيد!!

## تسرب العامية واللهجات المحلية!

تواجه العربية من قديم تعدد اللهجات المحلية، وتسرب العامية المحلية إلى استعمالات الناس قراءةً ثم كتابةً، وهى قضية شغلت من زمن أدبائنا الكبار انشغالاً حميماً جاداً، بحثاً عن أسلوب وسيط يحفظ العربية الفصحى ويقرب من لغة الناس، ويراعى فيما يراعى دواعى العصر أن تكون اللغة أكثر دقة وإحكاماً وانضباطاً، وبعداً عن الميوعة والسطحية والسجع اللفظى والعقلى والمحسنات البديعية الجوفاء.. ولكن من يتابع محاولات هؤلاء الكبار يدرك مدى الجهد والجهيد الذى بذله جيل الرواد مجدولاً بحرص حريص على العربية والتزامها فى جدية مشهودة.. تلمس هذا - على سبيل المثال - فى كتابات يحيى حقى الذى مع دعوته إلى أسلوب جديد فى محاضراته التى ألقاها بجامعة دمشق ونشرت فى كتابه "خطوات فى النقد"، كان أحرص الحرصاء على العربية حتى أنه كان يمضى الساعات بين المعاجم ليختار أو ينحت كلمة عاشقاً حتى النخاع للغته العربية.. ولكن ما يجرى الآن طوفان من الإيغال فى السطحية تذرع بالبحث عن لغة وسيطة توفيقية، ليفارق الفصحى ويوغل فى مفارقتها ويستسلم "للعاميات" المحلية حتى باتت اللغة الفصحى بعيدة عن استعمال وربما عن فهم كثير من الناس، واجتاحت الساحة اللهجات العامية مطعمة بألفاظ هابطة صارت تصافح عيون وآذان الناس فى الأعمال المسرحية التى تركت المسرح وقواعده وتقاليده إلى الرقص والزمر، وفى الدراما التلفزيونية والإذاعية، وأخذ هذا الزحف المستمر - يجور شيئاً فشيئاً، حتى تسرب إلى كتابات الأدباء (١٩) والشعراء (٢٠) - يتعلل بعضهم مداراة بمقتضيات واقعية ما يجب أن يدار من حوار على لسان الشخصيات فى العمل المسرحى أو الدرامى أو الروائى أو القصصى - بيد أن طوفان العامية والهبوط لم يلتزم بهذا الحد، ومضى لا يلوى على شئ حتى ابتعد عامة الناس عن اللغة

الأصل، وصارت العربية الفصحى غائبة غريبة أو شبه غريبة فى  
وطنها!!!

هذه الازدواجية، بين "الفصحى" و "العاميات" - فهى ليست عامية  
واحدة، شكلت وتشكل تحدياً حقيقياً ناعراً للغة الفصحى، ركب  
على ذلك عمق وتعقيد وجفاف أسلوب تدريس اللغة فى مراحل التعليم  
المختلفة، وتزواج ذلك مع هبوط المستوى التعليمى العام الذى هجر من  
زمن - الكيف إلى الكم، ثم جار الكم على أى اعتبار للكيف،  
حتى صار خريجوا الجامعات يخطئون فى أبسط قواعد الإملاء،  
ناهيك بالإلمام بقواعد اللغة ومفرداتها ومترادفاتها وروحها وثرائها .  
ذلك الذى دعا العقاد لأن يخصص كتاباً لها بعنوان، "اللغة الشاعر".  
لأنها بثرائها تعين الشاعر على نظم القصيد المحكوم بالجرس  
والمعمار الموسيقى، والبحور والمصارع والقوافى، إلى غير ذلك مما لا  
تقدر على إمداد الشاعر بأدواته فيه إلا لغة غنية واسعة الثراء غر  
مفرداتها وحركات إيقاع الألفاظ فيها تبعاً لموقعها من الإعراب ييز  
السكون أو النصب أو الرفع أو الجر أو التتوين، مما يتيح - مع غنى  
المفردات - بحراً زاخراً من الجرس يعين الشاعر فى مهمته المحكّم  
بقوالب وضوابط وقيود لا تحكّم كتابة النثر المرسله!

### هجران الفصحى!

هجران الفصحى شائع الآن حتى النخاع فى كلام وأحاديث  
الناس، وفى أغانى ومونولوجات المطربين ناهيك بالزاحفين علر  
الطرب والغناء، وفى الحوارات المسرحية والدرامية والروثي  
والقصصية، وفى معظم الكتابات الصحفية، وزحف إلى لغة الآداب  
العامية بعد أجيال البنائين العظام، ثم أخذ هذا كله يزحف إلى  
الإعلام المرئى والمسموع، وزحفه فى هذا المضمار يزحف بالحدت  
والضرورة على المجتمع بأسره.. كان المذيع قديما يخضع لإختبارات

بالغة العمق والعراضة، تشترط فيه فضلاً عن المهوبة والصوت - ثقافة واسعة، وإتقاناً تاماً للغة العربية معرفة ونطقاً.. ولا مجال فى إجتياز هذه الإمتحانات لوساطات ولا محسوبيات ولا مجاملات، فكنا فى صباننا نضبط لغتنا العربية - نحواً وصرفاً ونطقاً - على مذييعنا أمثال محمد فتحى وعبد الوهاب يوسف وحسنى الحديدى وصلاح زكى وعباس أحمد وفهمى عمر وسعد زغلول نصار وجلال معوض وفاروق خورشيد وطاهر أبو زيد وأحمد فراج وفاروق شوشه - إلى آخر الباقية التى ظلت تحمى العربية وتسربها بسلاسة إلى وعى الناس، فلما أن اقتحمت الوساطات والمجاملات، بات علينا أن نحمل عربيتنا من أخطاء كثير من الزاحفين الجدد الذين لا يعرفون اللغة، ولا يهتمون بمعرفتها، ولا يهتم أحد باشتراط علمهم بها، أو بتعليمهم إياها أو محاسبتهم على الأخطاء الفادحة فيها التى أخذت بدورها تتسلل إلى وعى الناس، فحلّ تعلم أو محاكاة "الخطأ" محل ما كان من تعلم "الصواب" وضبط اللغة بالتلقى عن السابقين العارفين الملتزمين بالعربية التزاماً دعا إذاعياً شاعراً متميزاً كفاروق شوشة إلى المداومة لسنوات طويلة على بث برنامجه الشهير: "لغتنا الجميلة"!

### ندح المجتمع كله!

الندح الذى نراه هو ندح المجتمع كله، وغياب العربية هو إذن غياب عن المحيط العام، وعن لغة وخطابات السياسة والمسئولين الكبار، بل وعن الواجب التفاتهم بحكم تخصص مواقعهم. إلى حقوق اللغة وحدودها - والاحترام الواجب لها ولقواعدها.. وهذا الغياب لا بد ينعكس بالضرورة على كل ربيع وعلى كل مجال! هل نطمع فى عناية باللغة فى كليات الحقوق المزدهمة ببرامجها القانونية وبأعداد طلابها الهائلة، مع تواضع القماشة التى تأتىها بحكم تسعيرة مكتب التنسيق؟! وماذا إذا كانت البارومة أصابت - وقد

أصابته - كثيراً من القائمين على التدريس بالجامعات، فهل فاقد الشيء يعطيه أو يمكن أن يعطيه؟!.. لم نسمع عن لجوء العقاد وطه حسين وأترابهما إلى مصححين لمراجعة وضبط ما يكتبون، بينما يكاد لا ينجو الآن كاتب ولا أديب ولا أستاذ عن الحاجة الماسة للتصحيح والمصححين وإلا خرجت كلماته إلى الناس بجرائر كبرى في حق اللغة العربية لفظاً وبناءً وصرفاً ونحواً!!!

### ساحات القضاء!

نعم كانت ساحات القضاء، مرافعة أو صياغة للمذكرات والأحكام، ميداناً فسيحاً ثرياً للعربية، ونهض على ذلك أسلاف عظام في المحاماه والقضاء، وكان ذلك حقيقاً أن يمتد لو استمر التواصل ولم تنقطع أحباله.. ولكن الحبال تقطعت بفعل ندح المجتمع كله والضعف والوهن العام، ثم هي قد ساهم في قطعها ازدحام القضايا وجورها على وقت ومزاج القاضى من ناحية، وعلى فرصة المحامى فى "الأداء" من ناحية أخرى!.. كانت الأحكام فيما سلف قطعاً أدبية رائعة، يكتبها القضاة بمزاج عال وشغف ملحوظ باللغة والملم بقواعدها وأسرارها، ولا يزال هذا النغم الرفيع محفوظاً فى صياغة أحكام المحكمة الدستورية العليا يساعد عليه عدم تسرب "طوفان" القضايا إليها مع شيوخ لحقوا وأخذوا من الزمن الجميل، وفى أحكام محكمة النقض التى يجاهد شيوخها للحفاظ عليه موصولين بتراث عبد العزيز باشا فهمى وأترابه - يعانون نصباً هائلاً إزاء تزايد طوفان طعون النقض التى بلغت أرقاماً فلكية!..

جميل أن نتحدث عن "المخضرمين" فى القضاء والمحاماة، الذين امتلكوا العلم وامتلكوا ناصية اللغة، بيد أن إمتداد هؤلاء مرهون بتواصل الأجيال، والتواصل قد تحفظه المدونات، وتنقله إلى الأجيال، ومع ذلك بحت أصوات العارفين دون جدوى - لإعادة طبع العمل الجليل

الذى نهض عليه فى الخمسينيات المرحوم محمود عمر "باشكاتب" محكمة النقض حين جمع فى "مجموعتى" القواعد القانونية - أحكام محكمة النقض المدنية والجنائية من بداية عمل المحكمة حتى عام ١٩٤٩ حاملة النصوص الكاملة لدرر الأحكام الرائعة المجدولة بلاغةً وأدباً فى ذلك العصر الذهبى الذى مهد وعبد طريقه هؤلاء الأسلاف العظام.

سهل وسطحى أن نلقى اللوم على شباب المحامين، ونحملهم عدم التواصل بالمخضرمين، وعدم العناية باللغة والاطلاع - بيد أن هذا تجن مريع، فلم يعد الكتاب الذى كنا نشتره بقروش زهيدة فى متناول الشباب الذى تتعداه أسعارها جاوزت المائة جنيه للكتاب الواحد، ولم يعد يجد - إذا أعوزته المادة - مكتبة فى متناوله، بينما كنا فى زمننا نلقى مكتبة ثقافية وقانونية عامرة فى كل غرفة محامين بالنقابات الفرعية بطول البلاد وعرضها، ولم يعد متاحاً له أن يتواصل مع الشيوخ الأجلاء لأن حجب الشباب عن هؤلاء وعلمهم وقيمهم بات هدفاً مطلوباً لأغراض صغيرة، فى الوقت الذى ضاقت فيه ساحات المحاكم عن سماع "المرافعات" التى كانت نافذة يومية تتواصل من خلالها الأجيال بسماع الشباب لروائع الشيوخ وأساتذة المهنة المحجوبين أيضاً عن التلقى عنهم فى معهد المحاماة الذى تخلو جداوله من شيوخ العلم والمحاماة خلواً مقصوداً لأغراض ضئيلة تتغيا أخذ الأجيال بعيداً بعيداً إلى حيث يراد!

القضية الحيوية التى أثارتهما صفحة الأهرام الأدبية، تستوجب أن نطلق صيحتنا فى جميع الأرجاء أن نعيد إحياء لغتنا العربية فى التعليم والإعلام والأدب والثقافة، وأن نجند لهذه الغاية حملة جادة بخطة قومية شاملة تعيدنا إلى لغة الضاد.. يومها سوف تعود العربية ( الغائبة ) إلى ساحة القضاء وإلى الدنيا بأسرها!